التطورات السياسية وحدود التحرّك الأوروبي

الموقـف دون مستـوى تغطية انهيـار المصداقية الأمريكية

بون/نبيل شبيب

للوهلة الأولى بدا أنّ الغضب الأوروبي من الانحياز الأمريكي الكامل وراء شارون سيسفر عن موقف جديد أو خطوات فعّالة قد تعود ببعض الفائدة أو تخفّف بعض المعاناة في ساحة أحداث الأرض الفلسطينية، ولم يقع ذلك، فالغضب لم يكن إزاء جوهر التعامل مع القضية نفسها، بل أشعله تجاوُز واشنطن مجدّداً للأوروبيين، الشركاء رسمياً على الأقلّ فيما يسمّى خارطة الطريق، والراغبين في تخفيف حجم خسارة مواقعهم في المنطقة العربية المجاورة.

بعد إعلان الرئيس الأمريكي جورج بوش تأييده دون تحفّظ لمخطّطات شارون لترسيخ احتلال الضفة الغربية تحت عنوان الانسحاب من غزة، وتخلّى عن التحفظات الشكلية السابقة بشأن جدار الفصل العنصري، توالت التصريحات الرسمية الأوروبية الرافضة للموقف الأمريكي، وهو ما أثار الاعتقاد باحتمال تحرّك سياسي وشيك، بينما كانت صياغتها جميعاً تركّز على جانب رئيسي هو عدم القبول بدفن جثمان خطّة خارطة الطريق، وبالتالي إلغاء الوجود الجزئي للأوروبيين والروس والأمم المتحدة إلى جانب الأمريكيين والإسرائيليين، على مقاعد التحكّم برسم خارطة المستقبل الفلسطيني. من هنا خاب أمل الذين توقّعوا أن تركّز السياسة الأوروبية على موقف جديد عندما انعقد اجتماع اللجنة الرباعية، فالأوروبيون لم يكونوا ابتداء ينتظرون من الاجتماع أن تتخذ اللجنة خطوة جديدة فعّالة ومشتركة، بل أرادوا الحصول على «وعد مستقبلي» يطمئنهم على عدم إلغاء دورهم هم، وهو نفسه وفق المنظور الأمريكي دور مستقبلي وليس فورياً، وقد حصلوا على تطمينات أمريكية غير ملزمة بهذا الصدد، لا تختلف كثيراً عن تلك التي أعطاها الرئيس الأمريكي لضيفه الأردني بعد أيام من لقائه مع شارون.

على أنّ التطوّرات اللاحقة فتحت باباً إضافياً أمام الأوروبيين، فالصفعة التي وجّهها تكتل ليكود المتطرّف لزعيمه وللرئيس الأمريكي معاً، أثارت لدى الأوروبيين لفترة وجيزة الوهمَ باحتمال رصد تراجع أمريكي قريب، ولو جزئياً، من الانحياز الكلّي إلى انحياز نسبيّ، ومن هنا تردّد الحديث عن قابلية العمل مجدّداً على إحياء ما تبقّى من خارطة الطريق الآن وعدم انتظار الانتخابات الأمريكية، وسرعان ما تبخّر مفعول هذا الحديث سياسياً وإعلامياً، مع التصريحات الأمريكية التالية للصفعة الليكودية، والتي بدا من خلالها أنّ الرئيس الأمريكي ما زال كما كان، لا يفكّر بأحداث الأرض الفلسطينية، مهما كانت مأساوية أو كانت معقّدة سياسياً، إلاّ بمنظور معركته الانتخابية، فضلاً عن التصوّرات العقائدية المحرّكة لصناعة القرار الأمريكي، والتي أصبحت معروفة في هذه الأثناء.

رهان أوروبي

ثمّ وجد الأوروبيون أنفسهم أمام تطوّر آخر أبعد مدى عند الكشف عن فضائح بعض ممارسات التعذيب الأمريكية والبريطانية في العراق وأفغانستان وغوانتانامو، مع رصد السقوط المطلق للمصداقيّة الأمريكية في الساحة العربية والإسلامية، وربّما خطَرَ للساسة الأوروبيين أنّ مفعول هذه الفضائح سيكون كالقشة التي تقصم ظهر بعير السياسة العربية نفسها، فتتحرّك بعد جمود طويل، ولكن لم يظهر أيّ موقف عربي رسمي تجاه الحدث يوحي باحتمال تبدّل ما في روتينية بياناتها التقليدية وارتباطاتها المطلقة بالولايات المتحدة الأمريكية، هذا مع أنّ الحدث كان له مفعول كبير على الساسة الأمريكيين، دفعهم لتحرّك مكثف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.. ولم يقتصر أمر الجمود العربيّ الرسمي على التجاهل السياسي لِقضية التعذيب التي باتت حديث الساعة الأوّل عالمياً، بل شمل عدم الإقدام على أيّ تحرّك ديبلوماسي، في أيّ مجال آخر يمسّ الأحداث على صعيد قضيتي العراق وفلسطين، ولو للاستفادة غير المباشرة من الغضبة العالمية على السياسة الأمريكية.

ووسط هذه الأجواء بدا للأوروبيين مسبقاً عدم وجود جديد في القمّة العربية في تونس، بعد أن سبق لعدد من الزعماء الأوروبيين، لا سيما الرئيس الفرنسي ورئيس الوزراء الإسباني الجديد، أن ألحّوا على موقف عربي مشترك، يتجاوز العبارات التقليدية في البيانات الختامية للقمم العربية، بل صرّح شيراك بذلك علناً على غير المعتاد ديبلوماسياً، قائلاً أثناء زيارته للجزائر إنّ اتخاذ موقف عربي مشترك يساعد الأوروبيين على تحديد موقفهم في اللقاءات الدولية مثل لقاء قمّة الثمانية.

موقف ضعيف

ومع اقتران الصمت الرسمي العربي تجاه فضائح التعذيب، بالصمت الرسمي العربي تجاه مذابح رفح، بدت جولة رئيس الوزراء الفلسطيني أحمد قريع في أوروبا محاولة «انفرادية» عربياً، وخالية مضموناً من حيث طرح مطلب أو موقف رئيسي جديد، وكان التركيز على محطّتها